

الطبائع

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبي

قال أحد الحكماء "عندما كنت صغيراً ظننت ألا شيء أضع للإنسان من دمه، ولما كنت في منتصف العمر حسبت ألا أضع له مثل حذو، ولكني الآن وقد أصبحت شيخاً أقول أن الطباع هي أعظم ما يفتق الإنسان".

وقد اتجهت الأنظار إلى الطباع منذ نشوب الحرب العالمية الأولى فقام المفكرون بتحليل الصفات التي يمتاز بها كل من قادتها ليستخرجوا تطلب احتمال النصر أو تطلب احتمال الهزيمة وكان كل من الشخصيات الفذة التي ظهرت بعد ذلك مثل لينين وستالين ومصطفى كمال وبوانكاره وولستون تشرشل وفرانكلين روزفلت موضوعاً خصباً للبحث لرفع التنوع عن سرهم فكان نصيب الصفات العقلية والصفات الحقيقية على توافرها دون نصيب طباعهم في بناء نجاحهم. فإذا بدأ مركز الإنسان الاجتماعي أقل مما يتناسب ونبوغه في فنه فابحث عن الصفات التي تكن في طباعه، وقد قيل :

لكل امرئٍ يأتم عمرو طبيعة وتفرق ما بين الرجال الطبائع

وقد عزا القدماء اختلاف الطبائع إلى سوائل الجسم، فكانوا يرجعون التفاؤل إلى غزارة الدم والعناد وسرعة الانفعال إلى غزارة الصفراء والهدوء والتراخي إلى غزارة البلغم والحزن إلى غزارة السوداء، وهكذا كان الإنسان في نظرهم دمويًا أو صفراويًا أو بلغميًّا أو سوداويًا. ولكن هذا الرأي ينهار أمام علم وظائف الأعضاء فضلاً عن أن الإنسان في الواقع يتنقل بين الأمراض الأربعة جميعاً.

وقيل - عندما تم اكتشاف غدد الإنسان - إن الطبائع هي النتيجة المباشرة لحالة الغدد حيث تكون طيبة فهو سعيد وحيث تكون سيئة فهو متشائم ومكتئب، غير أن هذا الرأي لم يصب كبد الحقيقة. فإذا صح أن أغذية الناس يتنفسون تبدأ لسوء حالة غدهم وينعمون تبعاً لطيب حالتها مما يؤكد قيام العلاقة بين الغدد والطباع وليس ضرورياً أن تكون طيبة طباع من يتمتع بصحة طيبة. بل قد يكون فظاً غليظ القلب.

وإزاء ما ظهر من العسر في إمكان تصنيف الطبائع اتجهت المحاولات إلى ترتيب الإحساسات ذاتها بين مبهمة مثل القلق وواحة مثل الغضب وحادة مثل السورة، ولكنني اعترض بالتساؤل ما هي حدود كل من هذه الدرجات وفي أيها مثلاً نضع الإحساس بالاشمزاز!

وكان المعتقد أن الإنسان يشعر بالاحساس أولا ثم يقع ذلك أنه يتشكل بالوضع الجسمي الذي يلائم هذا الاحساس بمعنى أنه يتألم فيمكنه ويتألم فيجربى ويسر فيحدثك . فليقع رأى بأن الإنسان في الواقع يتشكل أولا بالوضع الجسمي ثم يقع ذلك أنه يشعر بالاحساس الذي يلائم هذا الوضع فهو يبكي أولا فيتألم ويجربى ثم يتلو ذلك انه يخاف ويضمتك فينالو ذلك أنه يسر .

ومؤدى هذا أن الاحاطة بالأوضاع الجسمية وتقسيمها معاد الاجابة بالاحساسات وتقسيمها ، وقد اتهار هذا ارأى أمام الاستعدادات الآتية :

١ - يدل اصفرار بعض الناس على الخوف ويدل اصفرار غيرهم على الخجل واصفرار غيرهم على الكبرياء وغير م على الحزن وهكذا .

وإذن فلا يختص الوضع الجسمي حتما باحساس معين بالذات .

٢ - يجربى بعض من يخاف ويظل بعضهم جامدا ويصرخ غيرهم ، ويرهم يخرسه الفزع .

وإذن فلا يختص الاحساس حتما بوضع جسمي معين بالذات .

٣ - وأخيرا تجادل هذا الرأى ما يتقبل من أثر على الطباع . فنصرف الطفل غير تصرفه وهو رجل إراء موقف من المواقف . ويبدى ذو العقل الراجح أوضاعا جسمية متزنة حتى مع أعمق الاحساسات . كالأذان ، بنا يبدى ذو العقل السطحي أوضاعا جسمية غثيفه وخاصة إزاء القدير والاستمتاع ولاعجاب ولتعب واحساس .

والناذرة التي نحرج بها من هذا الرأى هي إمكان طرد الاحساسات السيئة والتبع بالاحساسات الطيبة المتعديدة وذلك باتباع الوضع الجسمي اؤدى اليها . فتعود مثلا أن تبتم وأن تتكلم بآثران وروية واحترم نفسك باختيار الألفاظ التي تخرج من بين شفتيك . وارفع قدر نفسك باختيار الحركات والأوضاع التي توحى بالذل والحب والتساح والرحمة .

وقد قيل إن من احساساتنا ما نشعر به بالفريزة وبالسلطة التي تؤدي بها عملية التنفس فالطفل يغضب ويتهيج ويبتس ويسفق ويعب بهير أن يعده أحد هذه الاحساسات البسيطة . وقد يشعر باحساسين أو أكثر من هذه الإحساسات البسيطة في آن واحد ، والطفل إذ يعلم أن أمه مريضة يحس بالشفقة نحوها والحرف عليها في نفس الوقت . وهذان الاحساسان هما التعلق . فالتعلق إذن احساس صرك وليس بسيطا . وكذلك الاحساس باللوم فهو غثيب واشفاق مما وهكذا .

فأساس الطباع إذن هو الاحساسات البسيطة التي يبرها كل من الأشياء والأشخاص والأفكار والأمكة والحيوانات وتتكون هذه الاحساسات منذ أول عهد الانسان بحيرة طبقا لما عليه التجارب الأولى ، فهي إما سارة تؤدي إلى الانجذاب للوضوع وأما مسيئة تؤدي إلى

النشور منه وهكذا تتكون الطباع والاتجاهات . فينشأ الطفل مثلا على حب من كان على حوررة أمه لأنه تنتج على وجهها يادست صدرته في عنقه الباطن مقربونة بهماها وحبها عليه . ويرجع سبب النشور امدى كان يحس به المورد يرون من آيات كتاب المقدس ان الطريقة التي اعطى بها الطبيب المدجن لاندر اعرجاج قدمه الذي لازمه منه طفولته . فقد كان يدنم قدم الصبي بلزيت ثم يشد عليه بجمها من خشب ويربى به المتفضل بهند او حشيشة ساءت ولكن يستطيع عن آلامه كان يعطيه الكتاب المقدس دواءه ان يشاور بحارت . تسع حمل وقت هذا التعذيب .

وقد ينسى الحادث ولكن الاحساس الذي يكون قد اثاره يكون قد اندس في الباطن الباطن قوة مخترنة ذات رغبة في الموضوع اوعه . لذلك فان العقل الوعى يمسد الى تبرير هذا الاحساس فقد يسمع الطفل من أمه قصة تجمله كره اليهود مثلا ثم ينسى القصة على مرور الزم . ولكنه مع ذلك يظل يكرههم مبررا احساسه هذا أنهم يشتغلون بالربا . ولذلك يتصح أثر المرأة في تكييف احساسات اولادها ، فهي معتمدة الأمان في إخراج جيل من البنية العنقاء .

وفيا هذا ، يقول الانسان منذ الطفولة ما يرى بالتجربة أنه أفضل ما يوصله الى الإشباع ، حين يجد أن نوعا من السلوك - كالبكاء - يحقق اشباع سار - كتنفذ طابازه - فيميل في المستقبل لهذا السلوك في ما على تجربته المساعية ، وهكذا يكون الرجل كما كان طفلا في أول نشأته ، فعلى المدرسين وعلى الآباء أن يجعلوا للاعمال الطيبة نائدة للطفل كتوجيه النظر اليه ومكافأته .

ويسمى مركب النقص الشعور بالنقص المنس في العقل الباطن مقنرا بلرغبة في تعويض هذا النقص بانذوق في جرة ما .

ويسمى مركب أوديب - نسبة الى اوديب الملك الذي زوج أمه في القصة الاعريقة - مانيدس في عقل الطفل الباطن من حب لأمه فقيرة من أبيه عليها فكره له يفض للرجولة فانكار املاات المرادمة التي ترو عليه فتختفعزوبة . ولكل انسان عدة مركبات خاصة به . وليس تتكون الطباع قصرا على دور الطفولة وانما تظل تتكون وتتطور مدى الحياة . حكى عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه قال " كان أبغض خلق الله شر رجل الى آل الزبير حتى تزوجت منهم ريلة فصاروا حب خلق الله عز وجل الى رفاها يقول :

أحب بنى الصوام طرا لأجائها . ومن أولمها . أحببت اخوالها فلما
فان تسلمى نسلم وان تنصرى يخط رجال بين أعينهم صلما

وتقال . الوراثة اختصاص ببعض الأسرات بطباع تنتقل فيها من جيل الى جيل ، لذلك قال الفيلسوف الأمريكى ويندل هلمس أن تربية الطفل تبدأ باثثة سنة قبل ولادته

وقال الدكتور يونج إن في طباع الانسان ما يرجع عهد مؤثراته الى ما قبل انفصاله عن أمه وأبيه ، وفي هذا قبل الولد سر أبيه وقيل المرق دساس وقيل ما هذا الشمل الإيم ذلك الأسد وقيل :

ودع اللثام بني اللثام فانما تلد اللثام بنو اللثام لثاما

ويتشتمل الطباع بالوراثة كما انتقلت من الانسان الأول الاحساسات وما يلزمها من الأوضاع الجسمية كالنفس عند الدفاع عن النفس أو الجرى أو تعطيب الحاجين أو توتر الشفتين ، متميزة بأنها فقدت عنصر التعمد في ادائها حتى أصبح انسان اليوم يؤديها بغير تكلف سليقة وطبعا لباياتها في النفس ولرسوبها من طبقة العقل الواعي الى طبقة العقل الباطن أو الى طبقة الغرائز حسب تنادم العهد عليها . وليس صعبا تمييز الرجل المهذب الناشئ في بيت عريق اذ تاتي مجاملاته بغموية لأنها قديمة وراسبة الى مرتبة العقل الباطن ، بينما يتكلف الرجل الذي يحاول أن يتناس في زمرة المهذبين .

وقد شاع أن الوراثة هي العامل الذي يفرض الطباع : ولذلك فقد ظن استعانة تلاميذ وجودها . غير أن البحوث التي أجريت في ربيع القرن الأخير أدت الى الافلال من هذه الخنثية .

بل ان علم النفس الحديث اتجه الى أن ٩٩٪ من السلوك - كما يقول وليم جيمس - خاضع للعادة . فالعادة طبيعة ثانية وهي - كما يقول دوق واتجتون - عشرة أمثال الطبيعة لأن العادات المتكثرة من التجارب تكون قد شغقت الدوافع الطبيعية خنثا .

وليس معنى هذا عدم انتقال الطباع بالوراثة ولكنها نقول مع الأستاذ هكسلي إن التكوين الوراثي يضع الحدود لما هو محتمل والبيئة تقرر أي هذه الاحتمالات يتحقق . فما من صفة ترجع كلها الى الوراثة أو كلها الى البيئة . ونقول مع الأستاذ جينجر إن كل انسان لديه قوة وورثة كاملة ولكن الظهار آية واحدة منها يتوقف على الظروف التي تحيط بهذه القوى عند نموها . فيترك الآباء مجموعة كقضايا تصبح في أحوال طائفة من الصفات . وتصبح في أحوال أخرى طائفة غيرها .

ومن عوامل تكوين الطباع الايحاء بها سواء بالتأثير أو بالتقليد . استعمل مصطلحي كمال هذا الايحاء بفرض ارتداء القبعة على الأتراك فاستأهوا بها طباع مرتدى القبعة . وكذلك فعل بفرض استعمال الحروف اللاتينية .

والعدوى النفسية تنتشر بالمحاكاة أي بالتقليد ومن وسائلها الكتابة والإذاعة وهي تسلم ببعض الآراء والمعتقدات تسليا غير إرادي متهدره العقل الباطن . والخوف يسرى

في الجماعة بالمعدوى . كما تسرى الرعشة من الجواد بالاصطبل الى الجياد الأخرى . وقيل إن عدد الذين أحرقوا أنفسهم في روسيا من سنة ١٦٧٥ الى سنة ١٦٩١ بلغ ٢٠,٠٠٠ نفس لعقيدة نشأت اذ ذلك أطعمتهم في الآخرة .

وتفسر هذه الاستجابات تقارب طبائع أفراد الحياة الواحدة .

وتختص الأمم والدول والأجناس بصنات معينة كما اختص العرب المشاجعة والافريق بالبطولة والوطنية . والجنس التوتوني بالجمل . فالإنجليزى أو الألماني أو الأمريكانى لا يجتمع بالاس نخله الا مضطرا وادا دخل مثلا عاملا حرص على جلميه وحيدا . وهو قليل الكلام كثير الاحتفظ متخذاً منه ستارا يوجب به عواطفه حتى تن أسرته . فيدوجاناً متعجرفاً . وانطوائه على نفسه نفورا من المجتمع ، حبب اليه بيته ، فهو لهذا يلتمسه ولو بركوب البحار والتوغل في الغيايق والغابات . وهناك تغنيه أسرته عن المجتمع ويدفعه استقلاله إلى الاعتقاد على نفسه وكلاهما إلى الانكباب على الدراسة ، ولذلك كان هذا الجنس كثير الهجرة وهو في مهاجرة يرعى أن يتقاعد بمكته عن جاره أيبالا بخلاف الفرنسي أو الأيرلندى فإنه غير متوكل واحتياعى يجب عشيرته وبلده فلا يفتارق ولا يرحل . وادا انتفى أن مهاجر تقارب المسكن وأهـ حـت حيا فرنسيا أو أيرلنديا .

ويلاحظ أن توافر إحدى الصنات تؤدي إلى توافر مجموعة منها . وذلك مثل نتيجة توافر صفة الخجل أو الأمانة . وتلبية الجغرافية أرفى تكوين الطبائع .

والشائع أن الفنون الجميلة تهذب الطبائع . ولكن أربدا في الواقع لا يكون بالتألم يمكن الفرد مطبوعا على التلير . وبغيره ينفق كل من جميل . فكم من الفنون الخالدة أخرجتها إلينا أسوأ عصور الظلم التي عرفها التاريخ . وكم من الفنانين الأشرار !

وزعم الناس أن تعلم العلوم كالطاب أو التقاون يكسب جميل الصنات حتما . وهذا زعم باطل لانعدام الصلة بين العلوم والطباع . وقد قال صمويل صميلاز "رب عالم أقل من جاهل أمانة وفنسية وإدراكا كالأواجب" وحتا أن الذى يجمع بين العلم وحسن الطباع هو أحد أولئك الذين يبدون مجد أممهم . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : " تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكنة والوقار والحلم " . وقال جورج هـ برت الشاعر الإنجليزى " الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة " .

ولكى نفرق بين الإحساس الطبعى والإحساس الشاذ نبحث عن الغرض المفيد الذى يديه الإحساس . فالخوف الطبعى هو الذى يحقق السلامة وهو الذى أتى به آباءنا شرور الظلام والمجهول فطخوا بهذا الخوف الإنسان حتى أننا اليوم وجدنا . ويراعى :

١ - التعادل بين الإحساس ومثيره . فالاصطدام شخص في الطريق لا يتعدى كونه حادثا عاديا . فإذا أحدث زعرا اعتر شاذا . وهذا يدل على أن العقل الباطن كان يفتحن طاقة كبيرة من الخوف المكبوت ظلت تلتبس ثغرة مهيما كانت صغيرة للانفجار منها كبحاز الرجل .

٤ - التعادل بين الاحساس وتعبيد من الوقت . فإذا انقضى الوقت المناسب ولم يكن ذلك الحادث قد نسي فذلك معناه أن للاحساس لم يكن نابها . وإنما كان صرنا . ومن الناس من يخفيه الله . وإن لمسه حرم فشيا عيبه . وهو يستطيع أن يفتن كل "الحوادث" التي واجه فيها الثمار مهما طال عيها الزمن !

فاختبر على ضوء ما تقدمه احساساتك الى تعاقب عليك - لال اليوم : وهل يضايقت إعداد نفسك في الصباح ، هل يفتنك الاشارة ، أو البحث أو الانصات هل يخرجك ما تراه من عظمة بهخر الناس . هل يحنك الثقل ورتحك الاثرار ويختك من لا يختني بك وهل يوعر صدرك من لا يصيبك أو من لا يفتنهك . وإلى أي مدى تنال تذكر حادثة من هذه الحوادث وتظل تستعيد ما افتن بها من احساسات ؟

ولكن تخلص من شذوذ هذه الاحساسات اتبع ما يأتي :

(١) اعرف أنه شاذ .

(٢) وارغب في التخلص منه .

(٣) واستعد لمراجبة المثير وذلك بتعبيد الوقت المناسب من واقع مفكرتك .

(٤) ونفذ ذلك بمواجبة اثير وخصص الثواني الأولى لإراحة الاستهلال التي تضمن عظم الانتصار .

(٥) ولا تسرع بأي تدبير أو استثناء ، التي بنفسك مرة بعد مرة في طريق التجربة قالانتصار يمكن في بضع ثوان تبدو أنها أصعب لحظات الثبات ، وهذه الثوان وحدها هي التي تعين الغالب والمغلوب .

(٦) وانتز الفرس التي من شأنها أن توجدك في نفس الحالة أو في حالة مماثلة . وفيما يلي بعض الاحساسات التي يكف عن اتيادها السمادة والنجاح في الحياة .

١ - الأمل ، ليس كلها التميد فقد قال فرنكاين "إن الذي يعيش على الأمل يستهدف للوت حوا" وليس كطوب المستحيل فقد قال الإمام علي كرم الله وجهه "ا كذبوا الأمل فإنه غرر" ولكنه الأمل المتز الذي ذكره هرمير روير حين قال "لست أقطع الأمل أبدا ما دام في صدري نفس يتاحلج" .

وهو يوحى للدنيا باجترام مشيتك وتحقيقتها . قيل :

وحوه عليها للتبول علامة . وليس على كل الوجوه قبول .

فهذا الأمل هو بظافة التوصية البدائمة .

٢ - الابتهاج ، وبدوا أثر عرفان الجبل "وأما بنعمة ربك فحدث" قول سطرط -
الومئى - حين أشار أصدقائه بطلاق زوجته لندة وهاجتها "كيف أطقتها وهي آلمني
الصبر" فغض إلى حسن تقدير النعم والبركات ميمسا كانت غائبة لأصنافها في المحن !

وتدلنا تراجم المظاه على تدفقهم نكبة الحياة وبهجتها فهو من دعوراس وفرجيل ومونتاني
وشكبير ومرفى وغيرهم قد تمتعوا - كما تلى آثارهم التي تركوها - ما يتبع ربح .

٣ - الشفقة ، ويريد قول أذلالهم لنا حين نبحث عن خير الناس نعلم على خبرنا. أن
التحرر من عبودية الأنانية يرفعنا إلى الكمال ويشعرنا بالندة. وليس أوثق الذين تغارحوا على
أموالهم وحياتهم وانتظروا الخدمة المرضى أو الفقراء أو الأيتام لا ينمرا مثلاً. خيرهم ما يفرينا
فإننا لمساعدتهم مهما كانت ضئيلة فستعجب اد ترى أثرنا أشرفنا على الوجوه الممذبة ،
قال الامام على لا تسبح من اعطاء القليل فان الحرمان أقل منه. ليكن من مبادئك ألا تردنا نلا
شيخا أبدا ، أو امرأة أبدا ، أو الأعمى والعمياء أبدا ، أو المريض والمریضة أبدا. ليكن
من مبادئك ألا يفوتك ا كتاب لايامى أبدا أو للمرضى أبدا أو للفقراء أبدا . ليكن من مبادئك
أن تحمل بعض الحلوى أول كل شهر الى ملجا من الملاجى ، ما حيت وهكذا قبل بز جهوز
لقد أفتت الصروح ولكنى لم أر شرفا أرفع من اصطاع المديون . ولا تنس واجبك
في الرقى بالحيوان .

٤ - المناجزة ، وقد قال الامام على "قليل مدام عليه خير من كثير ملول" .

٥ - الحلم ، وقال فيه ببرى السقطى أنه حلم مودوب أو حلم نحلم أو حلم كبرياء
أو حلم رياء أو حلم مهانة .

ومن الاحساسات المدمرة النفيظ قال معاوية "ما من شيء عدى الذ من غيظ تجرعه"
والفضب قال الامام على "الحدة ضرب من الجنون لأن صاحبها يندم فان لم يندم بفتونه
مستحكم" ، والحسد وفيه قيل :

وأن امرء عادى أناسا على العنى ولم يسأل الله العنى لحسود
واللؤم وفيه قيل :

وأن امرء لا يرتجى الناس نعمة ولم يامنوا به الأذى للئيم
والجزع وفيه قيل :

وأن جاء ما لا تستطيعان دفعه فلا تجزنا بما قضى الله واصبرا
والسفاضة :

تجنب الفحشاء لا تنطق بها ما دمت في جد الكلام وحزله

صلاح الدين الأيوبي